□ عُلُوُّ الهمَّة في الإخبات □

قال الله تعالى : ﴿ وبشِّر المخبتين ﴾ [الحج : ٣٤] . ثم كشف عن معناهم . فقال : ﴿ الذين إذا ذُكر اللهُ وَجِلَت قلوبُهم والصابرينَ على ما أصابهم والمقيمي الصلاة وممَّا رزقناهم ينفقون ﴾ [الحج : ٣٥] . وقال : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أُولٰئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ [هود : ٢٣] .

كان ابن مسعود رضي الله عنه إذا رأى الربيع بن خثيم – رحمه الله – يقول له : ﴿ وبشِّر المخبتين ﴾ . وكان رضي الله عنه يقول له أيضًا : « أمَا والله لو رآك محمدٌ ﷺ يا ربيع ؛ لفرح بك » .

« و (الْخَبْت) في أصل اللغة : المكان المنخفض من الأرض . وبه فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما وقتادة لفظ : ﴿ المخبتين ﴾ وقالا : هم المتواضعون . وقال مجاهد : المخبت : المطمئن إلى الله عز وجل . قال : والخبت : المكان المطمئن من الأرض . وقال الأخفش : الخاشعون . وقال إبراهيم النخعي : المصلُّون المخلصون . وقال الكلبي : هم الرقيقة قلوبهم . وقال عمرو بن أوس : هم الذين لا يظلمون ، وإذا ظُلموا لم ينتصروا .

وهذه الأقوال تدور على معنيين : التواضع ، والسكون إلى الله عز وجل . ولذلك عُدِّي بإلى ؛ تضمينًا لمعنى الطمأنينة ، والإنابة والسكون إلى الله .

قال صاحب المنازل : « هو من أول مقامات الطمأنينة » ؛ كالسكينة ، واليقين ، والثقة بالله ونحوها . فالإخبات : مقدمتها ومبدؤها .

قال : « وهو ورود المأمَنِ من الرجوع والتردُّد » .

لما كان « الإخبات » أول مقام يتخلَّص فيه السالك من التردُّد – الذي

هو نوع غفلة وإعراض - والسالك مسافر إلى ربِّه ، سائر إليه على مدى أنفاسه ، لا ينتهي مسيره إليه ما دام نَفَسُه يصحبه - شَبَّه حصول الإخبات له بالماء العذب الذي يَرِدُه المسافر على ظمأ وحاجة في أول مناهله ؛ فيرويه مورده ، ويزيل عنه خواطر تردُّده في إتمام سفره ، أو رجوعه إلى وطنه لمشقة السفر . فإذا ورد ذلك الماء زال عنه التردُّد ، وخاطِرُ الرجوع . كذلك السالك إذا ورد مورد « الإخبات » تخلَّص من التردُّد والرجوع ، ونزل أول منازل الطمأنينة بسفره ، وجَدَّ في السير .

درجات الإخبات :

قال شيخ الإسلام الهروي : وهو على ثلاث درجات :

« **الدرجة الأولى : أن تستغرق العصمةُ الشهوةَ ، وتستدرك الإرادةُ الغفلةَ ، ويستهوي الطلبُ السلوةَ** » :

قال ابن القيم في « مدارج السالكين » - شارحًا هذه الدرجة -: المريد السالك ؛ تعرض له غفلةٌ عن مراده ، تُضعِف إرادته . وشهوةٌ تُعارض إرادته ، فتصده عن مراده . ورجوعٌ عن مراده ، وسلوة عنه .

فهذه الدرجة من الإخبات تحميه عن هذه الثلاثة ؛ **فتستغرق عصمتُه شهوتَه** : و « العصمة » : هي الحماية والحفظ . و « الشهوة » : الميل إلى مطالب النفس . والاستغراق للشيء : الاحتواء عليه والإحاطة به .

يقول : تغلب عصمتُه شهوتَه وتقهرها ، وتستوفي جميعَ أجزائها ؛ فإذا استوفت العصمة جميع أجزاء الشهوة ، فذلك دليلٌ على إخباته ودخوله في مقام الطمأنينة ، ونزوله أول منازلها ، وخلاصه في هذا المنزل من تردُّد الخواطر بين الإقبال والإدبار ، والرجوع والعزم ، إلى الاستقامة والعزمِ الجازم ، والجدُّ في السير . وذلك علامة السكينة .

وتستدرك إرادتُه غفلته : و « الإرادة » عند القوم : هي اسم لأول منازل القاصدين إلى الله . و « المريد » : هو الذي خرج من وطن طبعه ونفسه ، وأخذ في السفر إلى الله ، والدار الآخرة . فإذا نزل في منزل « الإخبات » أحاطت إرادته بغفلته فاستدركها ، واستدرك بها فارطها .

وأمّا استهواء طلبه لسلوته : **فهو قهْر** محبته لسلوته ، وغلبتها له ؛ بحيث تهوي السلوة وتسقط ، كالذي يهوي في بئر . وهذا علامة المحبة الصادقة : أن تقهر فيه وارد السلوة ، وتدفنها في هُوَّة لا تحيا بعدها أبدًا .

فالحاصل : أن عصمته وحمايته تقهر شهوته ، وإرادته تقهر غفلته ، ومحبته تقهر سلوته .

« الدرجة الثانية : أن لا ينقض إرادتَه سببٌ ، ولا يُوحش قلبَه عارضٌ ، ولا يقطع عليه الطريق فتنةٌ » :

قال شيخ الإسلام ابن القيم : هذه ثلاثة أمور أخرى تعرض لصادق الإرادة : سبب يعرض له ينقض عزمه وإرادته . ووحشة تعرض له في طريق طلبه ، ولا سيما عند تفرُّده . وفتنة تخرج عليه ، تقصد قطْع الطريق عليه .

فإذا تمكّن من منزل « الإخبات » اندفعت عنه هذه الآفات ؛ لأن إرادته إذا قويت ، وَجَدَّ به السير ؛ لم ينقضها سبب من أسباب التخلُّف .

و « **النقض** » : هو الرجوع عن إرادته ، والعدول عن جهة سفره .

ولا يوحش أنسه بالله في طريقه عارض من العوارض الشواغل للقلب ، والجواذب له عمن هو متوجِّه إليه .

و « **العارض** » : هو المخالف . كالشيء الذي يعترضك في طريقك ، فيجيء في عرضها . ومن أقوى هذه العوارض عارض وحشة التفرُّد ، فلا يلتفت إليه ، كما قال بعض الصادقين : انفرادك في طريق طلبك ؛ دليل على صدق الطلب . وقال آخر : لا تستوحش في طريقك من قِلَّة السالكين ، ولا تغترَّ بكثرة الهالكين.

وأما « الفتنة » التي تقطع عليه الطريق : فهي الواردات التي ترد على القلوب ، تمنعها من مطالعة الحق وقصده . فإذا تمكّن من منزل « الإخبات » وصحّة الإرادة والطلب ، لم يطمع فيه عارض الفتنة .

وهذه العزائم لا تصحُّ إلا لمن أشرق على قلبه أنوارُ آثارِ الأسماء والصفات ، وتجلّت عليه معانيها ، وكافَحَ قلبَه حقيقةُ اليقين بها .

وقد قيل : من أخذ العلم من عين العلم ثبت ، ومن أخذه من جريانه أخذته أمواج الشُّبَه ومالت به العبارات ، واختلفت عليه الأقوال .

قال : « الدرجة الثالثة : أن يستوي عنده المدح والذم ، وتدوم لائِمتُه لنفسه ، ويعمَى عن نقصان الخلق عن درجته » :

اعلم أنه متى استقرَّت قدم العبد في منزلة « الإخبات » ، وتمكّن فيها ؛ ارتفعت هِمَّته ، وعَلَت نفسه عن خطفات المدح والذم ؛ فلا يفرح بمدح الناس ، ولا يحزن لذمِّهم . هذا وصف من خرج عن حظِّ نفسه ، وتأهَّل للفناء في عبودية ربِّه ، وصار قلبه مَطْرَحًا لأشعة أنوار الأسماء والصفات ، وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه .

والوقوف عند مدْح الناس وذمهم علامة انقطاع القلب وخلُوِّه من الله وأنه لم تباشره روح محبّته ومعرفته ، ولم يَذُق حلاوة التعلُّق به والطمأنينة إليه .

وأما قوله : « وأن تدوم لائمته لنفسه » : فهو أن صاحب هذا المنزل لا يرضى عن نفسه ، وهو مُبغِضٌ لها مُتمنٍّ لمفارقتها .

والمراد بالنفس عند القوم : ما كان معلولًا من أوصاف العبد ، مذمومًا من أخلاقه وأفعاله . سواء كان ذلك كَسْبيًّا أو خَلْقيًّا ؛ فهو شديد اللائمة لها . وهذا أحد التأويلَيْن في قوله تعالى : ﴿ **ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾ [القيامة : ٢] . قال سعيد بن جبير وعكرمة : تلوم على الخير والشر ، ولا تصبر على السـرَّاء ،

ولا على الضرَّاء .

وقال قتادة : اللوامة : هي الفاجرة .

وقال مجاهد : تندم على ما فات ، وتقول : لو فعلتُ ، ولو لم أفعل .

وقال الفراء : ليس من نفس بَرَّةٍ ولا فاجرةٍ إلا وهي تلوم نفسها ؛ إن كانت عملت خيرًا قالت : هَلَّا زدت ؟ وإن عملت شرًّا قالت : ليتني لم أفعل .

وقال الحسن : هي النفس المؤمنة ، إن المؤمن - والله - ما تراه إلا يلوم نفسه : ما أردتُ بكلمة كذا ؟ ما أردتُ بأكلة كذا ؟ ما أردت بكذا ؟ ما أردتُ بكذا ؟ ، وإن الفاجر يمضي قُدُمًا قُدُمًا ، ولا يُحاسب نفْسه ولا يُعاتبها .

وقال مقاتل : هي النفس الكافرة ، تلوم نفسها في الآخرة على ما فرَّطت في أمر الله في الدنيا .

والقصد : أنَّ مَن بذل نفسه لله بصدْقٍ كره بقاءه معها ؛ لأنه يريد أن يتقبلَها مَنْ بُذِلت له ، ولأنه قد قَرَّبها له قُربانًا . ومَن قَرَّب قُرْبانًا فَتُقُبِّل منه ، ليس كمن رُدَّ عليه قربانه ؛ فبقاء نفسه معه دليل على أنه لم يُتقبَّل قربانه .

وأيضًا فإنه من قواعد القوم المجمَع عليها بينهم ، التي اتفقت كلمة أولهم وآخرهم ، ومحقِّهم ومُبْطِلِهم عليها : أن النفس حجابٌ بين العبد وبين الله ، وأنه لا يصل إلى الله حتى يقطع هذا الحجاب ، كما قال أبو يزيد : رأيتُ ربَّ العِزَّة في المنام ، فقلت : يا رب ، كيف الطريق إليك ؟ فقال : خَلِّ نفسك وتعال .

فالنفس جبل عظيم شاقٌّ في طريق السير إلى الله عز وجل ، وكُلُّ سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل ، فلا بد أن ينتهي إليه ، ولكن منهم من هو شاق عليه ، ومنهم من هو سَهل عليه ، وإنه ليسير على مَن يسَّره الله عليه .

وفي ذلك الجبل أوديةٌ وشعوب ، وعقباتٌ ووهود ، وشوكٌ وعوسج ، وعُلَّيقٌ وشِبْرق ، ولصوص يقتطعون الطريق على السائرين ولا سيما أهل الليل

المدلجين ؛ فإذا لم يكن معهم عُدَدُ الإيمان ، ومصابيح اليقين تتَّقد بزيت الإخبات ؛ وإلَّا تعلَّقت بهم تلك الموانع ، وتشبَّثت بهم تلك القواطع ، وحالت بينهم وبين السير ؛ فإن أكثر السائرين فيه رجعوا على أعقابهم ، لمَّا عجزوا عن قطعه واقتحام عقباته . والشيطان على قُلّة ذلك الجبل ، يحذِّر الناس من صعوده وارتفاعه ، ويخوِّفهم منه . فيتَّفق مشقة الصعود ، وقعود ذلك المخوِّف على قُلّته ، وضعْف عزيمة السائر ونيَّته ؛ فيتولد من ذلك : الانقطاع والرجوع . والمعصوم مَن عصمه الله .

وكلّما رقي السائر في ذلك الجبل ؛ اشتدَّ به صياح القاطع وتحذيره وتخويفه ، فإذا قطعه وبلغ قُلَّته ؛ انقلبت تلك المخاوف كلّهن أمانًا . وحينئذ يَسهُل السير ، وتزول عنه عوارض الطريق ومشقَّة عقباتها ، ويرى طريقًا واسعًا . آمنًا يُفضي به إلى المنازل والمناهل ، وعليه الأعلام ، وفيه الإقامات قد أُعدَّت لركْب الرحمن .

فبين العبد وبين السعادة والفلاح : قُوَّة عزيمة ، وصبر ساعة ، وشجاعة نفس، وثبات قلب. والفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

قال ابن القيم : وقوله : « ويعمى عن نقصان الخلق عن درجته » :

يعني أنه وإن كان أعلى ممَّن هو دونه من الناقصين عن درجته ، إلَّا أنه لاشتغاله بالله ، وامتلاء قلبه من محبَّته ومعرفته ، والإقبال عليه ؛ يشتغل به عن ملاحظة حال غيره ، وعن شهود النسبة بين حاله وأحوال الناس ، ويرى اشتغاله بذلك والتفاته إليه نزولًا عن مقامه ، وانحطاطًا عن درجته ، ورجوعًا على عقبيه .

فإن هجم عليه ذلك بغير استدعاء واختيار ، فليُداوِه بشهود المِنَّة ، وخوْف المكْر ، وعدم علمه بالعاقبة التي يوافي عليها . والله المستعان »[1] .

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣ - ٨ .